خطأ المعاني وصوابها
في ضوء كتاب الصناعتين
عرض وتعليق ونقد

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فأبو هلال العسكري أديب ناقد، مدَّ المكتبة العربية والأدبية بمصنفات عديدة، تدل – في جملتها– على عمق اطّلاعه، وسعة باعه، وتَمَكّنه من العربية وآدابها.

وكتاب الصناعتين – صناعتي النظم والنثر– واحد من أهم مؤلفاته التي نالت اهتمامًا كبيرًا من الكتاب والباحثين، فقد دفع هذا الكتاب بالنقد الأدبي صوب البلاغة دفعة قوية؛ مما جعله موضع اهتمام النقاد والبلاغيين على حد سواء.

وقد أفرد أبو هلال الفصل الثاني من الباب الثاني في هذا الكتاب للتنبيه على خطأ المعاني وصوابها، فتحدث عن عيوب المديح والهجاء، ونعت الوصف والنسيب، وذكر أن الرثاء والفخر داخلان في المديح، وسيناقش ذلك في موضعه.

ومع أن أبا هلال ناقد له مكانته فإنه قد أخذ آراء قدامة بن جعفر في هذا الموضوع، وتبعه دون مناقشة، مما أدى به إلى الوقوع في أكثر الأخطاء التي وقع فيها قدامة.

وقد حاولت أن أبرز – في هذا البحث– مدى تأثر أبي هلال بقدامة، ومدى تأثيرهما فيمن جاء بعدهما من النقاد كابن رشيق، مع تحليل الآراء ومناقشتها، والرد على ما وقع فيه قدامة وأبو هلال من أخطاء.

وإني لأستمد من الله العون والرشاد، وأسأله السداد والتوفيق، إنه على ما يشاء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

أبو هلال العسكري[1]

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري.

ولد أبو هلال في "عسكر مكرم"[2]، وإليها نسب، وقد تتلمذ بها على خاله وأستاذه أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن إسماعيل بن زيد بن حكيم العسكري، وربما اشتبه ذكر أبي هلال بذكر خاله أبي أحمد لتوافقهما في الاسم واسم الأب والنسبة.

---

(١) راجع ترجمته في: إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي ٤/ ١٨٩، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر العربي بالقاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ٨/ ٢٥٨، ط دار المأمون، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٥٠٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر، ط ثانية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، وطبقات المفسرين للحافظ شمس الدين الداوودي ١/ ١٣٨، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٠٤٣هـ- ١٩٨٣م، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٥٢، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط دار المعارف، ط رابعة، ١٩٧٧م، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/ ٢٤٠، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، والأعلام للزركلي ٢/ ١٩٦، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط خامسة، ١٩٨٠م.

(٢) عسكر مكرم: بلد مشهور من نواحي خوز ستان، وقد نسب إليها قوم من أهل العلم منهم: العسكريان أبو هلال وخاله أبو محمد. (انظر: معجم البلدان لياقوت، ٤ / ١٢٣، ١٢٤، ط دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.

وكان أبو هلال موصوفًا بالعلم والفقه، قال أبو طاهر السلفي: سألت الرئيس أبا المظفر محمد بن أبي العباس الأبيوردي[1] عن أبي هلال فأثنى عليه، ووصفه بالعلم والفقه معًا. غير أن الغالب على أبي هلال كان هو الأدب والشعر، فسلك في عداد الأدباء[2].

وكان أبو هلال يعمل بتجارة البز إلى جانب تحصيل العلم وتعليمه، وقد تنقَّل بتجارته إلى بلاد متعددة، فكان يأخذ عن فضلائها، ويعود بمتاجره[3] إلى بلده "عسكر مكرم"، ولم يشغله ذلك عن التأليف وإثبات الفوائد.[4]

وله مصنفات عديدة منها[5]: الصناعتين، ديوان المعاني، جمهرة الأمثال، شرح ديوان أبي محجن الثقفي، الأوائل، العمدة، الفروق اللغوية، التلخيص في اللغة، ما تلحن فيه الخاصة، نوادر الواحد والجمع، شرح الحماسة، الدرهم والدينار، الكرماء، من احتكم من الخلفاء إلى القضاء، المحاسن في تفسير

(١) هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباس، المعروف بالأبيوردي – نسبة إلى أبيورد إحدى مدن خراسان– وكان أحد قرائها، شاعرًا، متبحرًا في الأدب، خبيرًا بالأنساب، صاحب تصانيف كثيرة، وكانت وفاته سنة ٥٠٧هـ. (انظر: معجم الأدباء لياقوت ١٧/ ١٣٤).

(٢) انظر: معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨، ٢٥٩.

(٣) متاجره: تجارته.

(٤) إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي ٤/ ١٨٩، وانظر: دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي ١/ ٥٢٨، تحقيق: د/ عبد الفتاح محمد الحلو، ط مطبعة المدني بالقاهرة، نشر دار الفكر العربي.

(٥) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٨/ ٢٦٣، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٥٠٦، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٥٢.

القرآن، وله ديوان شعر.

ولا شك أن هذه المصنفات إنما تدل على سعة باع الرجل، وكثرة اطِّلاعه، وتبحره في علوم العربية، وتنم عن ناقدٍ خبيرٍ له مكانته في ميدان الأدب والنقد.

ولكن حرفة الأديب- فيما يبدو- كانت قد أصابته، فقال يلعن القرطاس والحبر والقلم[1]:

إذا كان مالي مال من يلقط العجم ... وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالأصالة والحجا ... وما ربحت كفي من العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي ... ولا يلعن القرطاس والحبر والقلم

ويقول[2]:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري ... دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
وتهجوهم عني رثاثة كسوتي ... هجاءً قبيحًا ما عليه مزيد

وفاته:

لم يجزم أحد من المؤرخين القدماء بتحديد سنة وفاته، قال ياقوت:

---

(١) دمية القصر للباخرزي ١/ ٥٢٦، وانظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ص ١٤٥، ط دار الطباعة المحمدية، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٢) دمية القصر ١/ ٥٢٧، ومعجم الأدباء ٨/ ٢٦٢.

"وأما وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه: وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة"[(١)].

وليس فيما ذكره ياقوت ما يدل على أنه مات في هذه السنة على نحو ما ذكر كل من حاجي خليفة[(٢)] وبروكلمان[(٣)]، بل إن القفطي – أقدم من ترجموا لأبي هلال – ذكر أنه عاش بعد سنة أربعمائة؛ مما يجعل ما ذهب إليه حاجي خليفة وبروكلمان ومن تابعهما بمنأى عن التحقيق العلمي، ولهذا ترى صاحب الأعلام يحتاط لنفسه ، فيذكر أن وفاة أبي هلال كانت بعد سنة ٣٩٥هـ[(٤)].

* * *

(١) معجم الأدباء ٨/ ٢٦٤.

(٢) انظر: كشاف الظنون ١/ ١٩٩، ط دار الفكر، سنة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢ م.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٥٢.

(٤) انظر: الأعلام للزركلي ٢/ ١٩٦.

نظرة أبي هلال إلى المعاني

استهل أبو هلال الحديث عن معاني الشعر بقوله: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ تدل عليها ويعبر عنها؛ فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأن المدار – بعد – على إصابة المعنى؛ ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما من الأخرى معروفة.

ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغه من اللغة، ثم انتقل إلى لغة أخرى؛ تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحَوَّلها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال.

والمعاني على ضربين: ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة – والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط..

وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك، ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة، ولا يتَّكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولا يغرّه ابتداعه له؛ فيساهل نفسه في تهجين صورته، فيذهب حسنه، ويطمس نوره،

ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد.

وللخطأ صور مختلفة نبهت على أشياء منها في هذا الفصل، وبينت وجوهها، وشرحت أبوابها؛ لتقف عليها فتجتنبها. كما عرَّفتك مواقع الصواب فتعتمدها، وليكون فيما أوردت دلالة على أمثاله مما تركت، ومن لا يعرف الخطأ كان جديرًا بالوقوع فيه"[1].

التعليق:

لقد حاول أبو هلال – هنا – أن يؤكد على أهمية المعنى، فقرر أن المدار – بعد – إنما هو في إصابة المعنى، وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، وأن الألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما من الأخرى معروفة.

إذن فالمعاني هي الأصل، والألفاظ حلية أو زينة، وقد تأثر أبو هلال في ذلك بقول ابن طباطبا: "وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنًا في بعض المعارض دون بعض"[2].

غير أن أبا هلال كان قد انتصر للفظ في أكثر من موضع، فقال: "وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه،

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص ٨٤، ٨٥، تحقيق: د/ مفيد قميحة، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا، ص ٢١، تحقيق: د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، سنة ١٩٨٠م.

وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم[1] والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابًا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[2] ملتهمًا في ذلك قول الجاحظ: "والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير"[3].

ويمضي أبو هلال في تأكيد عنايته واهتمامه باللفظ فيقول: "ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ؛ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبانيه، وغريب معانيه، على فضل قائله، وفهم منشئه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني"[4].

---

(١) أود النظم: عوجه، ويقال: أقام أوده إذا قوَّم اعوجاجه.

(٢) الصناعتين، ص ٧٢.

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣١، تحقيق الأستاذ: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

(٤) الصناعتين، ص ٧٣.

ونخلص من هذا كله إلى ما يأتي:

أ- أن أبا هلال كان يحاول المواءمة بين اللفظ والمعنى، وهذا ما عبر عنه بقوله: "فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال"[1]. غير أن احتفاءه باللفظ كان أقوى وأبين وأوضح من احتفائه بالمعنى.

ب- أنه في محاولته المواءمة بين اللفظ والمعنى انتصر للمعنى هنا وللفظ هناك، مما أدى إلى التناقض، إذ يؤكد في هذا الفصل أن مدار البلاغة إنما هو في إصابة المعنى، في حين أنه قد أكد في الفصل الذي قبله أن مدار البلاغة إنما هو في تحسين اللفظ وإحكام صنعته.

* * *

(١) الصناعتين، ص ٨٤.

عيوب المديح

بعد أن نبه أبو هلال إلى ضرورة توخي الإصابة في المعنى، وبيَّن أن للخطأ صورًا مختلفة – شرع في التفصيل بعد الإجمال، فبدأ بذكر عيوب المديح، فقال: "ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحُسْن، والبهاء، والزينة، كما قال ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة.

ومثل ذلك قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان:

يا بن الأكارم من قريش كلها وابن الخلائف وابن كل قلمس[1]

من فرع آدم كابرًا عن كابر حتى أتيت إلى أبيك العنبس[2]

مروان، إن قناته خطية غرست أرومتها أعز المغرس[3]

---

(١) الخلائف: الخلفاء، وكلاهما جمع خليفة. القلمس: السيد العظيم، والخَيِّر المِعْطاء.

(٢) العنبس (وزان جعفر): الأسد.

(٣) الأرومة: الأصل.

وبنيت عند مقـام ربك قبـة خضـراء كلل تاجهـا بالفِسفِس[1]
فسماؤها ذهب وأسفل أرضها ورق تلألا في صميـم الحندس[2]

فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس، وإنما ذكر سؤدد الآباء، وفيه فخر للأبناء، ولكن ليس العظامي كالعصامي، وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخر عن رتبة الوالد، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريعًا للولد الناقص، وقد قيل لبعضهم: لم لا تكون كأبيك؟ فقال: ليت أبي لم يكن ذا فضل؛ فإن فضله صار نقصًا لي. وقد قال الأول:

إنما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيـا فعـاله المولـود

ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة، وليس بناء القباب؛ مما يدل على جود وكرم، بل يجوز أن يبني اللئيم البخيل الأبنية النفيسة، ويتوسع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ورد السائل، وليس اليسار مما يمتدح به مدحًا حقيقًا؛ ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي:

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعـون كما يصنـع
وليس بأوسعهم في الغنى ولكـن معـروفـه أوسـع

* * *

(١) الفسفس (بكسر الفاءين): البيت المصور بالفسيفساء، وهي ألوان تؤلف من الخرز، وتركب في حيطان البيوت من داخل كأنه نقش مصور. (انظر: اللسان، مادة "فسس").
(٢) الحندس: الظلام الشديد.

الجيد في المديح

والجيد في المديح قول زهير:

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا[1]

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل

فلما استتم وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول بالفعل؛ وصفهم بحسن الوجوه، ثم قال:

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المُقلّين السماحة والبذل

فلم يخل مكثرًا ولا مقلًّا منهم من برٍّ وفضل.

ثم قال:

فإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

فوصفهم بالحلم، ثم قال:

وإن قام منهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل

فوصفهم – أيضًا – بالتضافر والتعاون، فلما آتاهم هذه الصفات النفسية

---

(١) ويروى: (إن يستخبلوا)، والاستخوال: إعطاء المال على سبيل التمليك، والاستخبال: إعطاؤه على سبيل العارية. (انظر: شرح شعر زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب، ص ٩٣، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م)، وقيل: الاستخوال مثل الاستخبال، من أخبلته المال إذا أعرته ناقة لينتفع بألبانها وأوبارها، أو فرسًا يغزو عليه. (اللسان، مادة "خول"). ييسروا: يلعبوا الميسر. يغلوا: يغالوا في المقامرة، وكانوا يقامرون على سمان الجزر، فلا ينحرون إلا غاليه.

ذكر فضل آبائهم، فقال:

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتنبت إلا في مغارسها النخل[1]

التعليق:

لقد تبنى أبو هلال – في حديثه عن عيوب المديح – وجهة قدامة ابن جعفر في ذلك، وتأثر – إلى حدٍّ كبير – بقوله: "لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك – إنما هي العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة؛ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبًا، والمادح بغيرها مخطئًا"[2].

وقد نسخ أبو هلال جميع المثل التي ذكرها قدامة في باب عيوب المديح، فنقلها برمتها ليدعم بها وجهته[3].

على أنني ألاحظ الآتي:

أ- أن عبارة أبي هلال أدق من عبارة قدامة، فقدامة يؤكد أن المادح بالعقل، والشجاعة، والعدل، والعفة– هو المصيب، وما عداه مخطئ، أما

(١) الصناعتين، ص ١١٧، ١١٨، والخطي: الرمح، نسبة إلى الخط، وهو مرفأ بالبحرين ترفأ إليه السفن إذا جاءت من أرض الهند. الوشيج: شجر الرماح، وقيل: هو ما نبت من القنا والقصب ملتفًّا، دخل بعضه في بعض، وواحدته وشيجة.

(٢) نقد الشعر لقدامة، ص ٩٦، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار عطوة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م.

(٣) انظر: نقد الشعر لقدامة، ص ١٨٤– ١٨٦، والصناعتين، ص١١٤– ١١٦.

أبو هلال فيرى أن العيب إنما هو في العدول عن هذه الصفات إلى ما عداها من أوصاف الجسم من الحسن، والبهاء، والزينة، ونحو ذلك.

فلا مانع – في رأي أبي هلال – من أن ينضم إلى صفات النفس غيرها من أوصاف المديح، بل نراه يدعو إلى ذلك، فيقول: "ومع ما ذكرناه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب لآباء الممدوح، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه"[1]. وقدامة لا يعبأ بذلك، ويرى أن المديح يجب أن ينحصر في صفاته الأربع وما تفرع عنها.

ب- أن ما قرره قدامة وتابعه عليه أبو هلال لم يسلم من النقد، فقد وجَّه الآمدي نقدًا عنيفًا إلى وجهة قدامة في المديح، فقال: "فأما الجلال، والبهاء، والهيبة، ونحو ذلك فإنه واجب في مدح الملوك والخلفاء والعظماء؛ لأنه من الأوصاف التي تخصهم، ويحسن موقع ذكرها عندهم.

وكذلك جمال الوجه وحسنه مما يجب المدح به، فإن الوجه الجميل يزيد في الهيبة، ويتيمن به العرب؛ لأنه يدل على الخصال المحمودة، كما أن قبح الوجه والدمامة يسقط الهيبة، ويدل على الخصال المذمومة، وذلك مما تكرهه العرب وتتشاءم به؛ لأن أول ما تلقاه من الإنسان وتعاينه وجهه.

(١) الصناعتين ص ١١٩– ١٢٠.

وقد غلط بعض المتأخرين في هذا الباب – ممن ألف في نقد الشعر كتابًا– غلطًا فاحشًا، فذكر أن المدح بالحسن والجمال، والذم بالقبح والدمامة، ليس بمدحٍ على الحقيقة ولا ذمٍّ على الصحة، وخطَّأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذاك، فعدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم عربيها وعجميها، وأسقط أكثر مدح العرب وهجائها"[1].

وكان على أبي هلال أن ينظر بعين الاعتبار إلى نقد الآمدي[2]، ولكنه شايع قدامة، وتابعه على رأيه، مما جعل الدكتور مندور ينتحي باللائمة على أبي هلال؛ لإيثاره رأي قدامة على ذوق الآمدي، ونظراته الشعرية الجميلة[3].

المديح الجيد في منظور أبي هلال:

مع أن أبي هلال لم يتعرض صراحة لنعت المديح الجيد – اكتفاءً بما ذكره من عيوب المديح، وبما عرضه من أمثلة المديح الجيد – فإننا نفهم من كلامه أن الجيد من المديح – في نظره – هو ما كان بالفضائل النفسية؛ كالعقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، كما أنه لا ينبغي – إضافة إلى ذلك – أن

(١) الموازنة للآمدي ٢/ ٣٦٨، ٣٦٩، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨٢م.

(٢) تأثر أبو هلال في مواضع متعددة من كتابه (الصناعتين) بآراء الآمدي، مما يوحي بأنه اطَّلع على موازنته، وأفاد منها. انظر على سبيل المثال: الصناعتين، ص ٨٧–٨٩ مقابلة بالموازنة ٣٩/١ – ٤١، والصناعتين، ص ١٨١ مقابلة بالموازنة ١/ ٤٥، ٢٣٣، وراجع: النقد المنهجي عند العرب، د. مندور، ص ٣٢١، ٣٢٢، ط دار نهضة مصر.

(٣) انظر: النقد المنهجي عند العرب، د. مندور، ص٣٢٤.

يخلو المديح من مناقب لآباء الممدوح، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه.

* * *

عيوب الهجاء والمختار منه

يقول أبو هلال: "والهجاء - أيضًا - إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها لم يكن مختارًا.

والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم، والبخل، والشره، وما أشبه ذلك. وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه، وصغر الحجم، وضئول الجسم، يدل على ذلك قول القائل:

فقلت لها: ليس الشحوب على الفتى بعار ولا خير الرجال سمينها

وقول الآخر:

رأوه فازدروه وهو خرق وينفع أهله الرجل القبيح[1]

وذكر السموءل أن قلة العدد ليست بعيب، فقال:

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها: إن الكرام قليل

ومن الهجاء الجيد قول بعضهم:

اللؤم أكرم من وبر ووالده واللؤم أكرم من وبر وما ولدا

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا

وقول أعشى باهلة:

بنو تيم قرارة كل لؤم كذاك لكل سائلة قرار[2]

---

(١) ازدروه: انتقصوه وعابوه، الخرق (بكسر الخاء وسكون الراء): الفتى الكريم الخليقة، والظريف في سماحة ونجدة.

(٢) سائلة: اسم فاعل من سال الشيء يسيل سيلًا إذا جرى، والقرار: المستقر. والمراد أن اللؤم يجري نحوهم فيستقر في ديارهم.

ومن خبيث الهجاء قول الآخر:

إن يغدروا أو يجبنوا أو يبخلوا لا يجفلوا[1]

يغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا[2]

وقول الآخر:

لو اطَّلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا

وقول مرة بن عدي الفقعسي:

وإذا تسرك من تميم خصلة فلما يسوءك من تميم أكثر

ومن المبالغة في الهجاء قول ابن الرومي:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه مما حكاه أبو عثمان: أن بعضهم قبر إحدى عينيه، وقال: إن النظر بهما في زمان واحد من الإسراف[3].

---

(١) يجفلوا: الجفول: سرعة الذهاب في الأرض، والمراد – هنا– أنهم لا يستترون خجلًا أو استحياء. ويروى: لا يحفلوا؛ أي: لا يكترثوا.

(٢) مرجلين: من الترجيل، وهو تسريح الشعر وتسويته وتزيينه، والمراد: أنهم يظهرون زينتهم غير مبالين بما كان منهم.

(٣) الصناعتين، ص ١٢٠– ١٢٢.

التعليق:

كما تأثر أبو هلال بوجهة قدامة في المديح تأثر – أيضًا – بوجهته في الهجاء، على أن رؤية كل منهما للهجاء تأتي امتدادًا لرؤيته للمديح، فقدامة يرى: "أنه متى سُلِب المهجو أمورًا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبًا في الهجاء"(١).

وأبو هلال يرى أن الهجاء إذا لم يكن بسلب الفضائل النفسية لم يكن مختارًا، فما يعده قدامة معيبًا يعده أبو هلال من غير المختار.

ثم جاء ابن رشيق فرجح وجهة أبي هلال على وجهة قدامة؛ إذ يقول: "وأجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض، فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعايب، فالهجاء به دون ما تقدم، وقدامة لا يراه هجوًا البتة، وكذلك ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لا يراه عيبًا، ولا يُعَد الهجو به صوابًا، والناس – إلا من لا يعد قلة – على خلاف رأيه، وكذلك يوجد في الطباع – وقد جاء – ما أكد ذلك من أحكام الشريعة"(٢).

وأرى أن الهجاء الجيد لا ينحصر في سلب الفضائل النفسية، وأن الشاعر قد يقصد بذكر العيوب الخلقية إلى السخرية من المهجو أو التهكم به؛ فيكون هجاؤه ألذع، ووقعه أشدّ، وجرحه أعمق، يقول القاضي الجرجاني: "فأما

(١) نقد الشعر، ص ١٨٧.

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٧٤، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٥٣هـ – ١٩٣٤م.

الهجو فأبلغُه ما جرى مجْرى الهزل والتهافت ... فأما القذْف والإفحاش فسِباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم"[1].

ومن يطالع أدبنا العربي يجد أن شعراء الهجاء لم يقصروا هجاءهم على سلب فضائل النفس، بل تعدّوه إلى ميدان آخر، وهو رسم المهجو نفسه في صورة ساخرة، تقربه من الدمامة، وتثير الضحك لتخيله، فألحوا على ما فيه من عيب فضخَّموه، وما فيه من نقص فعظَّموا أمره، وأطلقوا لريشتهم العنان في رسم صور متعددة للقصر، ودمامة الوجه، وطول الأنف، وكبر المنخرين، وجحوظ العينين، وجعلوا ذلك ونحوه مدار شعرهم في الهجاء والتهكم بالمهجو، فأثاروا العيب الخلقي، وأرادوه ظاهرًا بارزًا يثير الزراية، ويبعث على السخرية من غير شفقة ولا رحمة[2]، على نحو ما كان من جرير بن عطية بن الخفطي وقد رأى الشاعر الأسود الحيقطان[3] يوم عيد يلبس قميصًا أبيض، فتهكم به قائلًا:

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ٢٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(٢) انظر: الهجاء للدكتور: محمد سامي الدهان، ص ٢٥، ٢٦، سلسلة فنون الأدب العربي، ط دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٢م.

(٣) لم تفصح المصادر عن شيء من أخبار الحيقطان سوى أنه كان عبدًا أسود شاعرًا، وأنه كان خطيبًا لا يُبارَى، وكان ينزع نزعة شعرية. (انظر: البيان والتبيين للجاحظ، ١/ ١٣، وظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ١/ ٧٢، ط النهضة المصرية سنة ١٩٦٢م، والشعراء السود، د/عبده بدوي، ص ١٥٠، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٨م).

كأنه لما بدا للنـــاس أير حمار لف في قرطاس

وكان لهذا البيت العابث أثره المؤلم في نفس الحيقطان، فيقال: إنه حزن حزنًا شديدًا لما أصابه من هذا البيت، فدخل منزله، ثم أنشأ قصيدة رادعة يثأر فيها لنفسه ولبني جلدته، ويرد على جرير ردًّا لاذعًا يتجاوز جريرًا وقومه إلى مكة وأهلها[1].

وقد ذكر أبو هلال نفسه في كتابه (ديوان المعاني) نماذج متعددة للهجاء بالعيوب الخلقية كالقصر، والدمامة، والقبح، والسواد[2]، يقول: ومن أقبح ما جاء في قبح الأسنان قول جرير:

إذا ضحكت شبهت أنيابها العلى خنافس سودًا في صراة قليبِ

وإنما خص الأنياب العلى دون السفلى؛ لأنها تبدو في التبسّم والتكلّم، وعند التثاؤب، ... فشبه أسنانها بالخنافس، وسعة فمها بالقليب، والصراة: الماء الفاسد، فشبه به فساد نكهتها"[3].

* * *

(١) انظر: رسائل الجاحظ ١/ ١٨٣، ١٨٤، تحقيق: أ/ عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي.

(٢) انظر: ديوان المعاني لأبي هلال ١/ ٢٠٥- ٢١٦، ط دار الجيل، بيروت.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٠٦.

نعت الوصف

يقول أبوهلال: "ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة:

خلت غير آثار الأراجيلِ ترتمِي تقعقع في الآباطِ مِنها وفاضها[1]

فهذا البيت يصور لك هرولة الرجالة ووفاضها في آباطها تتقعقع.

وقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأنّ رجالهم نخيلٌ أتاها عاضد فأمالها[2]

فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصروعين"[3].

التعليق:

فكرة أبي هلال في الوصف هي فكرة قدامة الذي يرى أن الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، وأن أفضل الشعراء مَن أتى في شعره بأكثر المعاني التي يكون الموصوف مركبًا منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحسن بنعته[4].

---

(١) الأراجيل: الرجال الذين يمشون على أرجلهم، خلاف الفرسان. الوفاض: جمع وفضة، وهي جعبة السهام والنبال.

(٢) عاضد: قاطع، يقال: عضد الشجر يعضده إذا قطعه بالمعضد.

(٣) الصناعتين، ص ١٤٥.

(٤) نقد الشعر لقدامة، ص ١٣٠.

وإذا كان أجود الوصف – في منظور قدامة وأبي هلال – ما استوعب أكثر معاني الموصوف، حتى يصوره لك فكأنك تراه نصب عينك – فإن الوصف إذا قصر عن ذلك كان معيبًا على رأي قدامة[1]، غير مُخْتار على ما يُفهَم من كلام أبي هلال[2].

وأرى أن ما يتطلبه قدامة وأبو هلال من ضرورة أن ينقل الشاعر صورة الموصوف كما هي عليه دون زيادة أو نقصان – إنما هو تشريع تحكمي[3] فيه حَجْر على خيال الشاعر وإبداعه وملكاته التصويرية، "كما أن فيه قناعة بالتصوير الحسّي، مع أن مجال التصوير يتسع لنقل وجدان المنشئ والإيحاء بإشعاعه الانفعالي إلى المتذوق، ولا ينبغي أن يُكتفى في الوصف بتصوير المرائي والألوان والأشكال المحسوسة، بل يجب أن يصحب ذلك تصوير الرؤى وتهويمات الخيال، وبقدر انطباعها في نفس المنشئ وعمقه وسعته يُرْجَى أن تطبع في نفس المتذوق بذات القدر والسعة، تسليمًا بنظرية التعاطف الوجداني، وعدوى الانفعالات والمشاعر"[4].

* * *

(١) انظر: نقد الشعر، ص ١٣٠، ص ١٩٠.

(٢) انظر: الصناعتين، ص ١٤٥.

(٣) انظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، ص ١٨٤.

(٤) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، ص ١٨٤.

نعت النسيب

يقول أبو هلال: "وينبغي أن يكون التشبيبُ دالاً على الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، ويكون بريًّا من دلائل الخشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزّة.

ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وقف الهوى بي حيثُ أنت فليس لي
متأخّرٌ عنهُ ولا متقدّمُ
أجدُ الملامة في هواكِ لذيذةً
حبًّا لذكرك، فليلمني اللُّوّمُ
أشبهتِ أعدائِي فصرتُ أحبُّهم
إذ كان حظِّي منكِ حظِّي منهمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسِي صاغرًا
ما من يهونُ عليكِ ممّن أكرِمُ

فهذا غايةُ التهالك في الحب، ونهايةُ الطاعة للمحبوب.

ويستجاد التشبيب – أيضًا – إذا تضمّن ذكر الشوق، والتذكر لمعاهد الأحبة، بهبوب الرياح، ولمع البروق، وما يجري مجراهما من ذكر الدّيار والآثار.

فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدي:

فلم تدع الأرياح والقطرُ والبلى
مـن الدارِ إلاَّ مـا يشفّ ويشغف

وكذا ينبغي أن يكونَ التشبيبُ دالاً على الحنين، والتحسّر، وشدة الأسف، كقوله:

وليستْ عشيّاتُ الحمَى برواجــعٍ
إليكَ ولـكـنْ خلِّ عينيك تدمعَـا
وأذكُـر أيـامَ الحــمَى ثم أنثنِي
على كبدِي من خشيَةٍ أن تصدَّعا

وينبغي أن يُظْهِرَ الناسبُ الرغبة في الحبّ، وألاّ يُظهرَ التبرّمَ به، كأبي صخر حين يقول:

فيا حبّها زدنِي جوىً كلَّ ليلةٍ
ويا سلوةَ الأيَّامِ موعدُكِ الحشرُ

وقول الآخر:

تشكَّى المحبُّـونَ الصَّبابَـة ليتني
تحمَّلتُ ما يلقون من بينِهم وحدِي
فكانت لنفسِي لذةُ الحــبِّ كلُّهـا
ولم يلقَهَـا قبلي محـبٌّ ولا بعـدِي

وينبغي أن يكون في النسيب دليلُ التدلّه والتحيّر؛ كقول الحكم الحضري:

تساهم ثوباها ففي الدرع ردأةٌ وفي المرط لفاوان ردفُهما عبلُ[1]

(١) الدرع: القميص. ردأة: ناعمة. المرط: الكساء من خزّ أو صوف يؤتزر به، وتتلفع به المرأة، وأراد به هنا الإزار. لفاوان: مثنى لفاء، وهي الكثيرة لحم الفخذين. العبل: الضخم من كل شيء.

فوالله ما أدري أزيدتْ ملاحةً وحسنًا على النسوان أم ليس لي عقلُ

وقيل لبعضهم: ما بلغ من حبّك لفلانة؟ فقال: إني أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها[1].

التعليق:

نسجل لأبي هلال ما تطلبه في النسيب من أنه ينبغي أن يكون دالًّا على الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، وأن يكون بريئًا من دلائل الخشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزة، فقد استجاد النقاد ذلك في النسيب، وعابوا ما يظهره بعض الشعراء من تجلُّد وإباء[2].

كقول الأحوص:

فإن تصلي أصلك وإن تبيني بهجرٍ بعد وَصْلك لا أبالي

وإني للمودة ذو حفاظ أواصل من يهش إلى وصالي

وأقطع حبل ذي ملق كذوب سريع في الخطوب إلى انتقال

(١) الصناعتين، ص ١٤٥– ١٤٩.

(٢) انظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، ص ٢١٧، تحقيق: محمد علي البجاوي، ط دار الفكر العربي، سنة ١٩٦٥م، والأمالي لأبي علي القالي ١/ ٧١، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥م، واتجاهات النقد الأدبي العربي، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ص ٨٣، ١٥٩، ط دار الطباعة المحمدية، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م، وفي محيط النقد الأدبي، أ.د/ إبراهيم علي أبو الخشب، ص ٣٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٥م.

وذكروا أن كثيرًا قال له[1]: لو كنت من فحول الشعراء لباليت، هلَّا قلت كما قال هذا الأسود – وضرب بيده على جنب نصيب مولى بني مروان –:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

وكان جرير يقول: "وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد – يعني نصيبًا – كان لي بكذا وكذا بيتًا من شعري"[2].

وكذلك نسجل لأبي هلال ما تطلبه من أن يُظْهر الناسب الرغبة في الحب، وألا يُظْهر التبرم به، كقول أبي صخر:

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

فقد أثنى النقاد على الغزل الذي يسير على هذا الدرب[3]، ونقل ابن رشيق عن الحاتمي أنه قال: أَغْزل بيتٍ قالته العرب قول أبي صخر: فيا حبها زدني جوى...[4].

ومع ذلك فإن ما قرره أبو هلال في حديثه عن النسيب لا يخرج – في جملته – عما قرره قدامة في قوله: "يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما

(١) الموشح للمرزباني، ص ٢١٧.

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١/ ١٠٥، ١٠٦، نشر مكتبة المعارف، بيروت.

(٣) انظر: الموشح للمرزباني، ص ٢١٤، ٢١٧، غير أنه في ص ٢١٤ نسب بيت أبي صخر لكثير عزة خطأ، وقد نبه على ذلك محقق الكتاب، وانظر: اتجاهات النقد الأدبي العربي، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ص ١٦٩.

(٤) العمدة ٢/ ١٢١.

يكون من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه الإباء والعزة، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة، ووافق الانحلال والرخاوة، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض.

وقد يدخل في النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابَّة، والبروق اللامعة، والحمائم الهائفة، والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية، واشخاص الأطلال الدائرة، وجميع ذلك إذا ذُكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة، ومرمض[1] الأسف والمنازعة"[2].

* * *

(١) مرمض الأسف: شدته.

(٢) نقد الشعر، ص ١٣٤، ١٣٥.

الرثاء والفخر

يرى أبو هلال أن الرثاء والفخر داخلان في المديح، فيقول: "ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة، ومعانيهم متشعبة جمَّة لا يبلغها الإحصاء – كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالًا، وأطول مدارسة له، وهو المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمراثي، والفخر.

وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما، ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب، وتركت المراثي والفخر، لأنهما داخلان في المديح، وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحَسَب، وما يجري مجرى ذلك، والمرثية مديح الميت، والفرق بينها وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وكذا، فينبغي أن تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول: مات الجود، وهلكت الشجاعة، ولا تقول: كان فلان جوادًا وشجاعًا، فإن ذلك بارد غير مستحسن.

وما كان الميت يكده في حياته فينبغي ألا يذكر أنه يبكي عليه، مثل: الخيل والإبل وما يجري مجراهما، وإنما نذكر اغتباطها بموته، وقد أحسنت الخنساء حيث تقول:

فقد فقدتك طلقة واستراحت فليت الخيل فارسها يراها

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يُحْسن إليه في حياته، كما قال الغنوي:

ليبكك شيخ لم يجد من يعينه وطاوي الحشا نائي المزار غريب[1].

(١) الصناعتين، ص ١٤٨.

التعليق:

(أ) اقتفى أبو هلال أثر قدامة في الرثاء كما اقتفى أثره في سائر الأغراض التي تقدمت، إذ يرى قدامة أنه "ليس بين المرثية والمدحة فصل، إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك: مثل: كان، وتولَّى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك"[1].

ثم جاء ابن رشيق فاقتفى أثرهما، فقال: "وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل: كان، أو عدمنا به كيت وكيت، وما يشاكل هذا؛ ليعلم أنه ميت"[2].

وما ذهب إليه النقاد الثلاثة – قدامة، وأبو هلال، وابن رشيق– لا يتفق وحقائق الشعر العربي، فلكل فنٍّ من فنونه ميزاته وصفاته التي يتميز بها من غيره، مما يجعلنا نحكم بأن فن الرثاء لا يتفق مع فن المديح، وإن اشتركا في ظاهر الأمر حين تأبين الميت – أحد روافد الرثاء[3] – إذ يُعدِّد الشاعر فضائل المرثي حين التأبين كما يُعدِّد مناقب الممدوح حين المديح، ولكن شتَّان الفارق بين التجربتين، والاختلاف بين الأمرين، لأن التجربة الوجدانية المسيطرة على

(١) نقد الشعر، ص ١١٨.

(٢) العمدة ٢/ ١٤٧.

(٣) روافد الرثاء ثلاثة، هي: الندب، والتأبين، والعزاء.

النفس المادحة غير التجربة الوجدانية المسيطرة على النفس الراثية[1].

فالرثاء لا يقف عند ذكر الفضائل وتعدد المناقب فحسب، ولو اقتصر على ذلك لكان رثاءً باردًا، لا يحرك عاطفة، ولا يثير انفعالا، إذ ينبغي أن يتخطى الشاعر هذا كله إلى ما هو أبعد منه وأعمق تأثيرًا ،فإن كان الميت قريبًا أو صديقًا ذكر الراثي لوعته وأساه، وأثر الفجيعة في نفسه، وإن كان الميت ملكًا، أو خليفة، أو أميرًا، أو قائدًا، ذكر أثره في دنيا الناس ومسرح الأحداث، وأن موته يشكل خطبًا عامًّا، وفاجعة عظيمة، ونحو ذلك مما يدل على فداحة الخطب وعظم المصاب.

(ب) ذكر أبو هلال – مقتفيًا أثر قدامة[2] – أن ما كان الميت يكده في حياته كالخيل والإبل وما جرى مجراهما لا يوصف بالبكاء على الميت، بل يوصف بالغبطة لموته، إنما يوصف بالبكاء عليه مَن كان يُحسن إليه في حياته كالعفاة والسائلين ونحو ذلك.

ويبدو "أن أبا هلال رصد الرثاء المروي عن السلف فبنى عليه نظرته هذه للبكاء، وهي نظرة اعتبارية وليست معيارًا ثابتًا، ومقالة الخنساء ليست من الأمور المحتومة، فإنه كثيرًا ما نشهد مسحة الحزن على الحيوان حين يفقد صاحبه، ولقد يغتال الحزن هذا الحيوان،

(١) انظر: ملاحظات على كتاب العمدة لابن رشيق، د/ يحيى محمد أحمد عيد، بحث بملحق مجلة اللغة العربية بالمنصورة ، العدد التاسع، ص ٢١٨ من ملحق المجلة، سنة ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

(٢) انظر: نقد الشعر، ص ١١٨، ١١٩.

فضلًا عن انتقاله إلى ملك الورثة، ففيم اغتباطه بموت من مات"[1].

(ج) ذهب أبو هلال إلى أن الفخر مديح المرء نفسه بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجري مجرى ذلك، وتبعه ابن رشيق فقال: "والافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار"[2].

غير أنه لا يخفى أن المديح بناء والفخر بناء آخر، وأن التجربة الشعرية في المديح غيرها في الفخر، وقد سبق القول بأن لكل فن من فنون الشعر ميزاته وخصائصه التي تميزه من غيره، وليس كل بانٍ بضرب بانيًا بغيره كما قال ابن قتيبة[3].

* * *

(١) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، أ د/ محمد السعدي فرهود، ص ١٨٣.

(٢) العمدة ٢/ ١٤٣.

(٣) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٩٤، تحقيق الشيخ: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف بمصر، سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م.

المصادر والمراجع

١- اتجاهات النقد الأدبي العربي، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ط دار الطباعة المحمدية، سنة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٢- الأعلام للزركلي، ط دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة١٩٨٠م.

٣- الأمالي لأبي على القالي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥م.

٤- إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر العربي بالقاهرة، ودار الثقافة، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٥- بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٦- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط دار الجيل، دار الفكر، بيروت.

٧- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٧٧م.

٨- الحيوان للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.

٩- دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ط مطبعة المدني بالقاهرة، نشر دار الفكر العربي.

١٠- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، ط دار الجيل، بيروت.
١١- رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي.
١٢- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٣- الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق الشيخ: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف بمصر، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.
١٤- الشعراء السود، د/ عبده بدوي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٨م.
١٥- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: د/ مفيد قميحة، ط دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٦- طبقات المفسرين للداوودي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٧- ظهر الإسلام، أ/ أحمد أمين، ط النهضة المصرية، ١٩٦٢م.
١٨- العمدة لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م.
١٩- في محيط النقد الأدبي، أ.د/ إبراهيم علي أبو الخشب، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٥م.

٢٠- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، نشر مكتبة المعارف، بيروت.
٢١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، ط دار الفكر، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٢٢- لسان العربي لابن منظور، ط دار المعارف بمصر.
٢٣- معجم الأدباء لياقوت الحموي، ط دار المأمون، بدون تاريخ.
٢٤- معجم البلدان لياقوت الحموي، ط دار صادر، بيروت، سنة ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.
٢٥- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٠م.
٢٦- ملاحظات على كتاب العمدة لابن رشيق، د/ يحيى محمد أحمد عيد، (بحث بملحق مجلة اللغة العربية بالمنصورة - العدد التاسع، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
٢٧- الموازنة للآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط دار المعارف بمصر.
٢٨- الموشح للمرزباني، تحقيق: محمد علي البجاوي، ط دار الفكر العربي، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
٢٩- نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب، أ.د/ محمد السعدي فرهود، ط دار الطباعة المحمدية، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٣٠- نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق: أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار عطوة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٣١- النقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور، ط نهضة مصر، سنة ١٩٧٢م.
٣٢- الهجاء، د/ محمد سامي الدهان، ط نهضة مصر، سنة ١٩٧٢م.
٣٣- الوساطة للقاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
أبو هلال العسكري	٥
نظرة أبي هلال إلى المعاني	٩
عيوب المديح	١٣
الجيد في المديح	١٥
عيوب الهجاء والمختار منه	٢٠
نعت الوصف	٢٥
نعت النسيب	٢٧
الرثاء والفخر	٣٢
المصادر والمراجع	٣٦
فهرس الموضوعات	٤٠

* * *